المحاضرة الثانية عشرة: المنهج الوصفي.

تكمن أهمية مناهج البحث اللغوي في كونها موصلة إلى غايات البحث و الدراسة، ومن شأن هذه المناهج القائمة على أسسها العلمية أن تتزه النتائج المحققة من كل النقائص ، و قد عَرَف البحث العلمي مناهج كثيرة – وخاصة البحث اللغوي – منها: المنهج الوصفي، والتاريخي، والمقارن، والتقابلي، والاستنباطي...وغيرها من المناهج.

المنهج الوصفي: يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة، من النواحي: الصوتية، والمقطعية، والصرفية، والدلالية، والتركيبية....ولابد أن يقتصر الباحث في نشاطه على الوصف المحض للظاهرة اللغوية التي يقوم بدراستها، أي تسجيل ما هو كائن بالفعل لا ما ينبغي أن يكون ، وقد بدأت بوادر هذا المنهج في نهاية القرن التاسع عشر ونمت في بداية القرن العشرين حتى تبلورت مفاهيمه على يد اللغوي السويسري فردينان دي سوسير، وأصبح المنهج الوصفي والدراسة الوصفية هي المهيمنة على مسار الدراسات اللغوية على مستوى العالم[1].

واللغات واللهجات المدروسة في المنهج الوصفي إما أن تكون منطوقة مستخدمة كاللغات الحديثة وتسمى باللغات الحية، والبحث فيها يفرض على الباحث أن يبدأ من نقطة الصفر إذا أراد استكشاف الظواهر اللغوية فيها ليخضعها للدراسة، ويتّجه بها إلى التجريد والتقنين، وإما لغات ولهجات مكتوبة، وهي التي ذهب أصحابها في العصور الأولى، وبقيت لغتهم لغة مدونة مكتوبة، ودراستنا للغة العربية الفصحى القديمة تعتبر دراسة لغة مكتوبة، وليست منطوقة؛ لأن نُطق هؤلاء العرب الأوائل لم نسمعه، و لم نكن نحن المعاصرين له.

الأسس التراثية اللغوية للمنهج الوصفي: لم يبرع علماء العرب في وضع منهج موضع العمل و التطبيق و الممارسة مثل المنهج الوصفي ، الذي له أصول ذكرها اللغويون حديثا وقد عرفها العلماء العرب قديما من خلال دراساتهم الوصفية لتدوين اللغة العربية وتحديد أصواتها وصرفها وقواعدها ونحوها ومعجمها، فنورد فيما يلي الأسس و الأصول [2] .

أولا : البداية تكون باختيار عينة الدراسة من الكلام، فلابد أن تكون العينة الكلامية المدروسة التي يطبق عليها المنهج الوصفي ممثلةً للغة أو اللهجة تمثيلا حقيقيا ، ويشترط في اختيار هذه العينة أن يختارها من أناس أصِّحاء لغويا؛ أي ليس عندهم عيوب كلامية، وأصحاب أمراض عقلية، فلا يأخذ العينة من شخص ألثغ، أو شخص يتأتئ، أو يفأفئ، أو يتمتم... أو ذي حُبْسة كلامية؛ لأن هذه العينة ستكون مقياسًا بعد ذلك للغة أو اللهجة المدروسة، كما عليه أن يلتزم بأخذ اللغة أو اللهجة من أهل وسكان المنطقة الجغرافية المحددة التي يريد دراسة لهجتها أو لغتها، فلا يأخذ اللهجة من رجل خرج من هذا الموطن، واستقر في موطن آخر، ثم عاد بعد ذلك ، ويطلق علماء اللغة العرب مصطلح الراوي على من يُروى عنه اللغة، ويشترط في الراوي

الذي يمثل لغة بيئته ويؤخذ عنه أن لا يخالط العجم مخالطة تفسد لسانه وتغير سليقته اللغوية، كأن يخرج من بيئته ويعيش في بيئة أخرى يتأثر بها، وربما يكون قد خرج عن العادات اللغوية المألوفة في بيئته الأصلية، وعلى الباحث أن يلاحظ في هذا الراوي تكلمه بالكلام التلقائي بعيدا عن التصنع والحذلقة والظهور بالتفاصح في الأداء، فيتثبت من صدق الراوي، كما عليه أن يطمئن إلى حالته النفسية بحيث تكون طبيعية أثناء النطق.

والمعروف أن علماء اللغة العربية الأوائل طبقوا هذا المنهج الوصفي، عندما شرعوا في وصف العربية الفصحى فأخذوا اللغة من مشافهتهم للأعراب وتركوا الحضر، فخرج هؤلاء العلماء إلى البوادي، وتركوا ديارهم وأوطانهم، وعاشوا مع البدو واختلطوا بهم في أمورهم العادية واليومية لكي يدوّنوا اللغة، وقد تحرّوا الدقة في النقل والتسجيل والدراسة؛ لأن هؤلاء البدو كانوا أهل فصاحة، وسلمت سليقتهم اللغوية ببعدهم عن الاختلاط بالعجم فلم يختلط بكلامهم شيء من كلام غير العرب، وانتقاء الراوي والمكان وسلامة الظروف المحيطة به من شروط العلماء فيمن يأخذون عنه العربية؛ لأن اختلاط البدو بغيرهم من الأمم ربما يفسد عليهم لغتهم الأصلية ،لذلك وجدنا العلماء لا يأخذون عن كل القبائل في تقعيد ووصف اللغة العربية، فاستبعدوا من دائرة الدراسة والرواية بعض القبائل التي كانت مجاورة للفرس والروم، والأقباط والأنباط، ويعتبر هذا ضربا من التحدي في التقصي على مصادر اللغة الأصلية، وأخذها من منابعها الأصلية.

جاء في عديد الآثار ومنها ما أقره السيوطي و الفارابي أن قريشا أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبيَنها إبانة عما في النفس، والذين نقلت عنهم اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب، والإعراب، والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، هذه هي القبائل التي أكثر العلماء بالأخذ بلغتهم، وأكثروا من لغتهم ، وأوضحوا دون مغالات موجبات استبعاد قبائل و الأخذ من أخرى ، فلم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم؛ فلم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والأقباط، ولا من غسان، وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأهل الشام كان أكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس أيضًا، ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف، وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا يتعلمون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم الأخرى، وفسدت ألسنتهم [3].

وقد وافق ما أثبته دي سوسير في أولوية العناية بالمنطوق، العلماء منهج العرب ،إذ كانوا يعتمدون على الكلام المنطوق المأخوذ عن الفصحاء مشافهة، كما حذروا من الاكتفاء بالكلام المكتوب؛ لأن المعالم الصوتية للأداء في الكلام ستكون مختفية، وربما صُحِّف أو حُرِّف الخط، وإذا كان فيه تصحيف أو تحريف خطيٌ فهو لا يمثل اللغة المنطوقة ، إذًا وجدنا علماء العربية يتحرون كل الدقة والحذر في أخذهم العينات اللغوية التي يضعون عليها القواعد والأسس التي تُبنى عليها، ثم صار المُحْدَثون والمعاصرون في دراستهم للغات الإنسانية دراسة وصفية على هذه القواعد، فاعتمدوا على الكلام المنطوق، وأخذوا من الراوي الذي اكتملت فيه شروط الرواية الصحيحة المطلوبة.

ثانيا : ضرورة تحديث المستوى اللغوي ، هل تُدرس اللهجة أو اللغة دراسة صوتية من حيث المخارج والصفات؟ أم تُدرس دراسة صرفية من حيث الصيغ والأبنية؟ أم تُدرس دراسة نحوية من حيث التراكيب؟ أم تُدرس دراسة دلالية من حيث بيان وتوضيح معاني الكلمات والتطور الدلالي الذي لحق بهذه الكلمات؟ لأن المستويات اللغوية تتفاوت في كل لغة فهناك المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وما يصدق على مستوًى لغوي معين لا يصدق على مستوى آخر، فما يصدق على المستوى الصوتي لا يصدق على المستوى الصرفي، أو النحوي، أو الدلالي، وعليه يجب تحديد المستوى اللغوي المدروس ،كذلك تختلف اللغة الشعرية عن لغة النثر؛ لأن اللغة الشعرية مرتبطة بوزن وقافية فيلجأ الشاعر إلى مخالفة القواعد اللغوية أحيانا ليحدث تجانسا وتآلفا حتى يكون الجرس الموسيقي لهذه الكلمات والجمل له تأثير في القوالب، وهذا بخلاف اللغة النثرية، لذلك وجدنا علماء العربية يعرفون هذا الفرق بين لغة الشعر وغيره من الألوان الأدبية والحديث العام.

وجب أيضا ضبط الطبقة الاجتماعية التي سيوصف لغتها أو لهجتها؛ لأن هناك طبقات اجتماعية ومهنية متعددة داخل المجتمع، فرغم أنهم ينتمون إلى مجتمع واحد، لكن الطبقات مختلفة، والمهن مختلفة، والعادات مختلفة، هذه المهن وهذه العادات لها مصطلحات خاصة تستعمل في طبقتها، ولا تستعمل في طبقة أخرى، وعلي الباحث أن يحدد المستوى الطبقي للمتكلمين، ومن خلال المستوى الطبقي يستطيع أن يحدد المستوى اللهجي الذي يقوم بدراسته.

ثالثا : يستلزم ضبط البيئة المكانية للغة أو اللهجة المدروسة التي يراد وصفها وتحليل نماذجها ضروري في تطبيق المنهج الوصفي؛ لأن اللغة تختلف اختلافًا بيّنًا باختلاف الطبيعة الجغرافية للإقليم الذي تعيش فيه، وتعبّر عن حاجات أهله، فسكان المناطق السهلية لهم لهجة، تختلف عن لهجة سكان الصحارى والجبال، ولسكان المناطق الساحلية لهجة تختلف في بعض مظاهرها عن لهجة أهل المناطق السهلية والجبلية؛ لأن المشاهد الطبيعية التي تعبر عنها اللغة مختلفة، والمدركات الحسية المُعبَّر عنها بالألفاظ اللغوية تتغير لما تتبدل الفضاءات البيئية الجغرافية ،وهذه الحقائق ماثلة عند علماء العرب، فعرفوا أن اللغة العربية انقادت واستوت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت في الجزيرة العربية؛ وتنبه العلماء إلى طبيعة المكان وما يتسم به، وربطوا بين المكان

وبين اللغة، فنجد القاضي الجرجاني يربط في كتابه "الوساطة" بين اللغة وطبيعة البيئة الجغرافية للمكان من حيث اللين والنعومة، فالمكان الصحراوي جاف وعر تجد أصحابه أصحابَ خشونة، وأصحاب شدة وغلظة في الكلام وفي الأداء، لكن عندما تقارن بين لغةٍ أصحابُها يعيشون في مكان يتسم بالحضارة والتقدم والرقي، فتجد فيهم سهولة ولين ويسر في الأداء والتعامل، ولذلك وجدنا الجرجاني يجعل لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق من أهم الأسباب التي تساعد على ركاكة وضعف اللغة، والوقوع في الالتتباس أيضًا، فيلجأ الانسان بطبعه إلى اللطيف و اللين من الكلام بدل الخشن المستهجن .

رابعا : وجب تحديد المجال الزمني ،فإذا أردنا دراسة لغة دراسة وصفية كالعربية فهل الحكم الذي نصدره على اللغة العربية في العصر الحديث مثلًا ينطبق على اللغة العربية في العصر الجاهلي، أو العصر الأموي، أو العباسي، أو غير ذلك؟

من المهم تحديد العصر الزمني الذي يقوم الباحث الوصفي بدراسة لغته، فيدرس اللغة في مرحلة واحدة من مراحلها؛ لأن كل عصر له لغته ، واللغة دائمًا في تغيّر مستمر بتغيّر العصور والأزمان، اللغة شأن الإنسان، الإنسان يتغير كذلك اللغة تتغير بتغير أصحابها، أو بتغير مجتمعها، كما تتغير لنهضة اجتماعية أو فكرية أو دينية؛ كل هذا يكون له تأثيره البالغ على اللغة، فهناك ألفاظ جاهلية سقطت من الاستعمال في العصر الإسلامي، وألفاظ أخرى ظهرت بمجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم لم تكن هذه الألفاظ مستعملة قبل ذلك في العصر الجاهلي ، فقد جاء عن ابن فارس أن العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ونَسائِكِهم وقرابينهم، و بمجيئ الإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وسقطت وأبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، ومن الأسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم: المرباعة والنشيطة، والفضول، وغير ذلك" هذه ألفاظ كانت مستعملة في العصر الجاهلي، لكن عندما جاء الإسلام محا هذه الألفاظ، وهكذا...

كون اللغة لها أنماط في كل مرحلة ، ولها مستويات، فلا يجمع الباحث الوصفي بين مرحلتين مختلفتين، بل يصف كل مرحلة على حدة؛ لأنه لو وصف مرحلتين مع بعض تداخلت الظواهر في المرحلتين، فلا نعرف هل هذا المظهر لهذه المرحلة أو مظهر الأخرى؟ فيحدث اختلاط ولبس، فالدارس يجد نفسه مضطرًّا لأن يصف اللغة في زمن معيّن وليس على مر الأزمان والعصور، وعليه أن يحدد الزمن، ويحدد المرحلة[4].

المنهج الوصفي في خدمة العربية الفصحى:الواقع أن الحاجة إلى إعادة نظر دراسة اللغة العربية الفصحى باستخدام المنهج الوصفي تكون ملحّة في الوقت الراهن لأسباب عديدة[5]:

أ ــ المنهج الوصفي من شأنه الفصل في كثير من الخلاف، على سبيل المثال: بين اللغويين العرب خلاف حول ما يطّرد فيه القياس، وما لا يطرد على نحو: جمع (فعْل) صحيح العين على (أفعال) فنقوم بدراسة وصفية للنصوص المأثورة عن العرب القدماء، ونرصد النماذج التي جمع فيها هذا الجمع رصدًا دقيقًا، لو قمنا بهذا الرصد لأمكننا أن نطمئن إلى أحد القولين الذي يؤيده الشاهد ويؤيّده الدليل، في هذه الحالة نميز الفصيح.

ب ــ الدراسات التاريخية تعتمد بالأساس على المنهج الوصفي الذي يسبقه ، ومن خلال الدراسة الوصفية نتعرّف على المظاهر التي تعرّضت لها اللغة في عصر معين من عصوره.

جـــ ــ المعجم العربي يعتمد على المنهج الوصفي، سواء كان المعجم لغويا أو تاريخيا ،لأن المعجم التاريخي يقوم بالأساس على الدراسة الوصفية، كما يمكن للدراسة الوصفية أن تعود بثمرة طيبة على تنظيم المعجم اللغوي العربي الذي يعاني من تشتت المفردات والمشتقات، واضطراب في وضع معاني المادة اللغوية الواحدة، فإذا أُسس المعجم العربي على هدي الدراسة الوصفية استطاع أن يخرج في نسق معيّن، يساعد الباحث في وضع الأفعال، والأسماء، والمعاني الحسية، والمعاني المجردة أو العقلية في أماكنها، وقد حاول صانعو المعجمات المحدثون الاستفادة فعلا من ذلك في المعجمات الحديثة والمعاصرة، حيث نجد تنظيما داخليا محكما ،كما يمكن الاستدراك على المعاجم العربية القديمة بالدراسة الوصفية لكتب النوادر؛ حيث غاب عن المعجميين القدماء بعض الألفاظ القديمة، فلم يثبتوها لسبب ما؛ أو ربما سقطت في الاستعمال.

هوامش و مراجع المحاضرة :

1ــ انظر : تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة. الطبعة, 2000م.

2ــ نادية رمضان النجار،فصول في الدرس اللغوي بين القدماء والمحدثين،دار الوفاء،الإسكندرية،2116 م ص 130-132.

3ــ انظر : أحمد مختار عمر البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط 6 ، عالم الكتب1988م.

4ــ انظر : عباس حسن ،اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر. 1966م.

5ــ انظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية – 2002م.